الحياة الاجتماعية ومدى تأثرها بالمشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي في الجزائر

د.محمد خالد اسطنبولي

جامعة أدرار

أبدأ مقالي هذا بسؤال جوهري و مهم عليه يبني كل هذا البحث- لماذا احتلت فرنسا الجزائر ؟

ولنبحث إلى تصريحاتهم فقد جاء في المنشور الفرنسي الموجه إلى سكان الجزائر الذي حمله جيش الاحتلال ما يأتي : "أما أنتم يا شعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقيناً أني لست أنا لأجل محاربتكم .... فإن حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم. وإنما قصد محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا العداوة و البغضاء "

كما جاء في نص و وثيقة استسلام مدينة الجزائر 4 جويلية 1830م والذي تضمن بندها الخامس: " إبدأ العمل بالدين المحمدي سيكون حراً. وأن حرية السكان مهما كانت صفاتهم ودينهم وممتلكاتهم وتجارتهم وصناعتهم لن تخرق وأن نساءهم ستحترم " [1]

فهل هذه هي استراتيجية فرنسا في الجزائر وهل وفت بما وعدت ؟

إن نظرة فاحصة إلى حاضرنا المعاصر من جميع النواحي تدرك أن مشكلة أية أمة تنبع من عدم قراءة أبنائها لتاريخ وطنهم قراءة واعية مدروسة وعدم قدرتهم على الاستفادة من ماضيهم حتى يستقبلوا حاضرهم [2].

إن التاريخ ليس فقط حادثة تكتب وواقعة تروى. و رواية تسجل. وإنما هو قبل كل شيء عرض لأفكار وتحليل لنتائج عاشتها المجتمعات في الماضي. وانعكست على واقع الشعوب في الحاضر وقد يكون لها تأثير على الأجيال الناشئة مستقبلاً [3].

إن احتلال فرنسا للجزائر في سنة 1830 كان في واقع الأمر نتيجة لتوسع الاستعمار الأوروبي الذي كان يهدف إلى السيطرة على الأسواق العالمية وتسهيل عملية الاستيراد والتصدير و في الوقت نفسه استغلال المستعمرات الجديدة والمهمة الأساسية لهذا التوسع كانت تحطيم البنى الثقافية والاجتماعية للسكان الأصليين وتحويل اقتصادهم من اقتصاد استهلاكي إلى اقتصاد موجه إلى التصدير. وأثناء تلك العملية التدميرية كان الأهالي عرضة لأعمال و حشية .

وهذه شهـادة المفكر الألماني أنغلز سنة 1857 م قال: "من الوهلة الأولى لاحتلال الجزائر من طرف الفرنسيين و حتى الوقت الحالي فإن هذا البلد الشقي كـان مسرحا لأحداث دموية و نهب و عنف ... إن ما يمكن قوله هو إنها مدرسة حربية للجنرالات والجنود الفرنسيين ..."[4].

القضية الثـانية التي أدركها المستعمر هو أن الإسلام يشكل عائقـا كبيراً . على استمـرار و جودهم في الجزائر لذا حاربوا بكل قسوة و شراسة فحولوا المساجد إلى كنائس وثكنات ... بغية إضعاف الجانب الديني لدى الجزائريين و بالتالي تسهيل مهمة إدماجه في المجتمع الفرنسي إذ يقول أحد المبشرين :" إذا لم ننجح في خلق رجال فرنسيين من هذا الشعب فسيجروننا على الخروج من الجزائر . إن الطريقة الوحيدة لجعلهم فرنسيين هي إدخالهم في المسيحية "[5].

الممارسة: إن الناظر في تاريخ الجزائر و إلى ممارسات المستعرب المدمر ليعلم يقينا أن الذي حصل في الجزائر و مورس من طرف المستعمر شمل جميع النواحي. السياسيـة والاقتصادية علما بأن هذه النواحي هي وحدة واحدة إذا تمزق عقدها ضاعت كلها.

إن المجتمع الجزائري قبل الاحتلال كان يتسم بالقبلية . العشائرية و يعتمد أساساً على الفلاحة رعيا و زراعة. فأول ما بدأ به المستعمر هو اغتصاب الأراضي الفلاحية الخصبة لصالح المعمرين "الكولون" نتج عنها تدهور قطاع المواشي بعد استيلاء الأوروبيين على أغلب المـراعي وتحويل قسم منها إلى أراضي زراعية.

وفي سنة 1865 عدد المواشي 08 ملايين رأس

ففي سنة 1900 عدد المواشي 3-6 ملايين رأس

وبالنسبة للبقر

1865 -عدد البقر مليون رأس

1900 -عدد البقر 84600 رأس

وباختصار شديد تفيد خطة " الأرض المحروقة " و ترك الشعب يفر بجلده من الموت بعد أن سلبت أرضه و توجه للعمل عند الكولون كحماس كما انتشرت الهجرة في البداية إلى الدول العربية وبعدها إلى فرنسا. أما وضع المرأة فأكثر من الشيء لا تعليم ولا ثقافة ...

- كما انتشرت الطرقية والصوفية المخربة انتشاراً كبيراً.

وباختصار شديد تنفيذ خطة " الأرض المحروقة "و ترك الشعب يفر بجلده من الموت بعد أن سلبت أرضه و توجه للعمل عند الكولون كخماس كما انتشرت الهجرة في البداية إلى الدول العربية وبعدها إلى فرنسا. أما وضع المرأة فأكثر من الشيء لا تعليم ولا ثقافة ...

- كما انتشرت الطرقية والصوفية المخربة انتشاراً كبيراً.
- كما أثار المستعمر النعرات العصبية من بينها التفريق بين العرب والبربر[6].

تصفية الأوقاف: إذا كانت فرنسا بعد دخولها مباشرة انتهكت حرمة الأملاك منها أملاك البايلك (الدولة) وهي حوالي 500 ملكية ما يعادل 40 ألف فرنك تحولت للدولة الفرنسية وكذا أملاك بيت المال الخاصة بالأموال المحتجزة وكذا أموال من لا ورثة له[7] ... وكذا الأملاك الخاصة. فلقد عرفت فرنسا قيمة الأوقاف المحبسة على المؤسسات الخيرية وخاصة أماكن العبادة والتعليم وما تؤديه من خدمات اجتماعية وثقافية واقتصادية في المجتمع الجزائري وهذا أحد الكتاب الفرنسيين يقول " إن الأوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتناقض مع المبادئ الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر.

فقد عمدت السلطات الفرنسية بمدينة الجزائر سنة 1835 إلى التصرف في ألفي وقف كان تابعا لمئتي شخص ومؤسسة والاستيلاء على 27 مسجدا و11 زاوية ومصلى[8]. وكانت أحباس الجزائر تقدر قبل الاحتلال بـ 40 مليون فرنك وكان للجزائر العاصمة نصيب يقدر بـ 07 ملايين فرنك ينفق ريعها على 150 مسجداً وهذه الموارد المالية الطائلة جعلت الجزائر تنعم بدرجة عالية من التعليم في مختلف ميادينه.[9]

توطين العنصر الأوربي: شجع الاستعمار الفرنسي سياسة استيطان الفرنسيين بالجزائر وحتى الأوربيين ومنحهم المساعدات والخدمات.

السنة	عدد الأوربيين
1831	800
1841	45000
1871	225000
1901	576000
1931	8333359[10]

خطة جهنمية: قام تنظيم الإدارة الفرنسية بالجزائر إلى خدمة المستوطنين الأوربيين بحيث يساعد القادمين منهم على الاستقرار واكتساب الثروة ويسهر على توفير الخدمات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لهم. وقد أحدث لهذا نظاماً إدارياً محلياً يقوم على إعطاء صلاحيات كاملة للبلديات التي يوجد بها العنصر الأوربي خاصة ووضع لتسييرها قانوناً مدنيا صدر في 1884 يكفل حق الانتخاب لـ 180ألف أوربي و 1500 من الجزائر.

أما عن التعليم :

إن التعليم بالنسبة للمشروع الثقافي الفرنسي هو العمود الفقري الذي لابد من القضاء عليه حتى يسهل الباقي . فالتعليم قبيل الاحتلال بشهادة المؤرخين العرب والغربيين بأنه كان منتشراً في كل أنحاء البلاد قال " الجنرال فالري" سنة 1934 " إن كل العرب الجزائريين تقريباً يعرفون القراءة والكتابة حيث هناك مدرستان في كل قرية " [11]

وأحد الرحالين الألمان الذين أقاموا بالجزائر سنة 1830 يلاحظ قائلا : " لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوربا .[12]

إن لعملية التعليم مؤسسات متنوعة منها المساجد والذي بلغ عددها بالجزائر العاصمة: مائة مسجد [13] وفي قسنطينة بلغت خمسة وثلاثين مسجداً تستخدم كمراكز للتعليم الإسلامي[14] كما انتشرت الكتاتيب وبلغ عددها قبل الاحتلال ثلاثة آلاف كتاب[15]

كما انتشرت الزوايا والمدارس بشكل كبير وواسع فإن سعد زغلول فؤاد يقول: "كان بالجزائر في يوليو 1830م ثلاث مائة مدرسة وأربع جامعات في كل من الجزائر وقسنطينة وتلمسان و مازونا... وكانت تضم 180 ألف طالب من مجموع الشعب البالغ وقتئذ 3.5 ملايين نسمة " [16]. ولا يفوتنا بأن تمويل التعليم كان عن طريق الأحباس (الأوقاف)

أساليب فرنسا في القضاء على التعليم:

إن الاستعمار في الجزائر وبعد دخوله مباشرة اعتدى على المدارس وأغلق معظمها وحول البعض الآخر إلى ثكنات عسكرية ومستودعات وقد أحرق جل مكتباتها واعتقل طلبة العلم وأعضاء التدريس كما لم تسلم المساجد من طغيانه فاستولى على أجملها وهدم بعضها، وحول البعض الآخر إلى كنائس .

أما الكتائب فهي المؤسسة الوحيدة التي تمكنت فعلا من النجاة من أيدي الاستعمار تسببا.[17]

التبشير في الجزائر.

لقد صدق البشير الإبراهيمي عندما قال "السيف والصليب ذلك للتمكن وهذا للتمكين"[18] وأنا لا أتصور أن فرنسا كان هدفها هو تنصير الجزائر وإنما هدفها هو تضييع الهوية الجزائرية واستعباد شعبها فهذا زويمر سنة 1935م يبين سياسة الاستعمار التنصيرية.

"أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية فإنه في هذا هداية لهم وتكريما وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. لقد قضيا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الزمن من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ونشرنا في تلك الربوع أماكن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية والفضل إليكم وحدكم"[19] لقد ذكرت بعض الممارسات كنماذج لسياسة المستعمر طيلة بقائه في الجزائر.

وشاء الله أن يخرج المستعمر العسكري بأسباب كثيرة وجهود متضافرة ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل أثر مشروع المستعمر الثقافي علينا في الجزائر المعاصرة؟

انعكاسات المخطط الاستعماري في الواقع الجزائري.

حقيقية لا بد منها وهي : لولا أن الإسلام حق بذاته. مؤيد بتأييد الله. محفوظ بحفظه. لم تبق منه بقية تصارع قوى الشر في الأرض.

وقبل الكلام على تأثيرات المشروع الفرنسي الثقافي أريد أن أنبه وأعود بالذاكرة إلى الحروب الصليبية وتواطؤ الدول النصرانية كلها على الإسلام والمسلمين وهذا لعدة عوامل وأسباب منها.

- بعد المسلمين عن تطبيق الإسلام.
- بعد المسلمين عن فهم الإسلام الفهم الصحيح
- تنازع حكام المسلمين حول السلطة

- حب الدنيا والانغماس في الشهوات
- ضعف اليقين بالله وفقد الثقة بالنفس
- البخل بالأموال والأنفس

هذا وقد استمرت الحروب الصليبية قرابة قرنين (12م، 13م) ثم انتصر المسلمون.

إذن فقد كان اتجاه أعداء الإسلام منذ قرون أن يباشروا أولا بالغزو المادي المسلح ليؤدي وظيفته المادية من جهة وليكون سبيلا للغزو الفكري والنفسي والخلقي من جهة أخرى، حتى إذا تم للغازي الاحتلال الفكري والنفسي كان ضحيته مركبا ذلولا[20].

إن الغزو الفكري يطلق على المخططات والأعمال الفكرية، والتثقيفية والتربوية التي تقوم بها المنظمات والمؤسسات من أعداء الإسلام بغية تحويل المسلمين عن دينهم، وتمزيق وحدتهم وتقطيع روابطهم الاجتماعية لاستعمارهم فكريا ونفسيا ثم سياسيا وعسكريا واقتصاديا ووسائلهم في ذلك :

1. تشويه عقائد المسلمين.
2. محاربة اللغة العربية الفصحى.
3. إحياء القوميات.
4. استخدام النفاق والمنافقين.[21]

وهذا كله تم تحت غطاء أجنحة مكر ثلاثة وهي :

- التبشير: تنصير الشعوب غير النصرانية، ثم تحول هدف التبشير بالنسبة للشعوب الإسلامية فوصل إلى حد التكفير وإخراج المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد.
- الاستشراق: ووضع الدراسات المتعلقة بالشرقيين وتعويض، تاريخهم وأديانهم، ولغاتهم وهدفهم خدمة التبشير، الاستعماري[22].

ونلخص أبرز أعمال كيدهم في مستعمراتهم في الآتي :

1- تذليل مهمة المبشرين والمستشرقين.
2- فصل الدين عن الدولة وإلغاء الشريعة الإسلامية.
3- افتتاح المدارس العلمانية.

4- الضغط على التعليم الإسلامي التقليدي.

5- إخضاع البلاد للقوانين المدنية الوضعية.

6- إلغاء القضاء الإسلامي وكذا الأوقاف.

7- إفساد أخلاق الشعوب المسلمة.

8- نشر لغة المستعمر وإحلالها محل لغة الأمة.

9- استغلال خيرات البلاد.

10-محاولة الاستيطان.

11- إثارة الفتن والنعرات الطائفية.

12- تربية نخبة موالية للدول المستعمرة [23]

تأثيرات المشروع الثقافي الفرنسي:

سبق الكلام أن أول ما بدأت به فرنسا سياسة الأرض المحروقة ثم الاستيلاء على الأوقاف الذي كان يمول التعليم وغيره، كما حاولت القضاء على الإسلام والعربية مع سن قوانين لخدمة هذه الأغراض دون أن ننسى صياغة جيل لها.

وأنا الآن أعالج هذه القضية أنبه أننا لا نلقي باللوم على من تأثر ولا كيف تأثر لأن طول فترة المستعمر في الجزائر استطاعت أن تفعل الشيء الكثير وأهم قضية هي محاولة فرنسا لتغيير الإسلام من مضامينه وهذا ما تنبه له ابن باديس والجمعية بالتركيز على الزوايا والطرقية المنحرفة رغم صمود البعض منها.

وعملت فرنسا ونجحت إلى حد بعيد في القضاء على العربية وإخراج جيل لا يؤمن إلا بالفرنسية وهذا الهم مازال يلاحقنا حتى اللحظة.

أما بالنسبة للناحية الاجتماعية وأخص بالذكر الأسرة والمرأة فما لم تستطيع فرنسا أن تصل إليه فإن أذنابها قد وصلوا إلى الكثير منه.

أما الناحية التعليمية فهي مازالت تراوح مكانها من التبعية لفرنسا وما إلغاء العلوم الإسلامية في الثانويات إلا جزء من هذا التأثير وإذا أردنا الكلام على هذه التأثيرات فنحن الآن في حالة خطيرة ونحتاج إلى إسعاف عاجل.

- فنداني إلى أهل علم النفس والاجتماع والدعوة والعربية والمختصين في العلوم الإسلامية. فلقد خلف الاستعمار كوارث وأمة معقدة ومهزومة ومنبطحة ولقد تنبهت جمعية العلماء، وركزت على العلم والإصلاح ومن هنا أبين حقيقة لا بد من معرفتها وهي : نحن في الجزائر لا نخاف الغزو العسكري لأننا أمة عزيزة الكرامة ولكن الخوف والخوج عندما يتأثر إخواننا وبنو جلدتنا وهذا هو الخطر الكبير لأن المستعمر استطاع أن يجعل بيننا شرخا واسعا وخطيرا وهذا البشير الإبراهيمي يخاطب الشعب الجزائري سنة 1950م قائلا " إن القوم الفرنسيين لا يدينون إلا بالقوة، فاطلبها بأسبابها. وأقها من أبوابها، وأقوى أسبابها العلم، وأوسع أبوابها العمل. فخذهما بقوة تعيش حميدا وتمت شهيدا. "

بيد أن الإمام الإبراهيمي كان مقتنعا أن الجهاد من غير إعداد للشعب هو إلقاء به إلى التهلكة وكان يؤمن أن أهم إعداد هذا الجهاد هو تحرير عقول الجزائريين ونفسياتهم لأنه محال أن يتحرر بدن حمل عقلا عبدا. ولا شك أن تحرير العقول أصعب وأشق من تحرير الحقول.

ومن أجل ذلك قضى الإمام أزهى مراحل عمره في تحرير عقول الجزائريين وقد عمل في سبيل هذا الهدف في عدة جبهات.

1. جبهة الطرقية المنحرفة وعلماء الدين الرسميين الذين ظل سعيهم واتخذوا الفرنسيين أولياء.

2. جبهة المسلوبين الذين نالوا نصيبا من الثقافة الفرنسية فانسلخوا عن دينهم واحتقروا لغتهم وسخروا من تاريخهم.

3. الجبهة الفرنسية [24]

ويمكن تخليص مبادئ وأهداف جمعية العلماء من رئيسها الثاني الشيخ البشير الإبراهيمي حيث قال: "ياحضرة الاستعمار إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها. وتطالبك باستقلال قضائه. وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده، وقضائه عدوانا بصريح العبارة و تطالبك بحرية التعليم العربي وتدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن. وتعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا

- وتعمل لتمكين إخوة الإسلام العامة بين المسلمين كلهم."[25]

وفي الختام أخص وصفة العلاج قائلا : لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها في عهد محمد صلى الله عليه وسلم. وسلف هذه الأمة وننطلق من أهداف الجمعية فالواقع مشابه تماما.

فمزيدا من الحرية حتى نصل كما وصل أسلافنا. كما أني أركز على العمل الخيري الجمعوي فإن فيه من الخير ما لا يتصور أحد والله من وراء القصد.

الهوامش:

[1] الجزائر منطلقات و آفاق د. ناصر الدين سعيدوني ص 19-20

[2] تصدير كتاب منطلقات و آفاق – بقلم أ. د. عمار بوحوش ص 7

[3] نفس المرجع السابق ص 13

[4] Karl Marx Friedrich Engels . ON CLONISATION MOCCOW – 1974. P 158-159.

نقلاص : إيديولوجية الحركة الوطنية الجزائرية لصالح فيلالي ص 17-18 من كتاب الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية " مركز الدراسات العربية لبنان ط 2 1999

[5] جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر. د.أحمد الخطيب. ط المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. سنة 1985 ص(80-89) بتصرف.

[6] الحركة الوطنية الجزائرية. ج1

[7] القيادة في العمل الإسلامي. مصطفى الطحاب. دار الوثائق. ط1985 الكويت. ص 338

[8] الجزائر منطلقات وآفاق. ص(21-23)

[9] القيادة في العمل الإسلامي. مصطفى الطحاب. دار الوثائق. ط1985 الكويت. ص 338

[10] الجزائر منطلقات ص 32.

[11] الحركة الوطنية الجزائرية أبو القاسم سعد الله (جـ 2 ص 64 ط2 – 1977)

[12] أبو العيد دودو الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ط 1975 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 13

[13] الجزائر عبر الأجيال مجاهد مسعود ص57 .

[14] كتاب الجزائر أحمد توفيق المدني ط2 1963م ص284 .

[15] هذه هي الجزائر أحمد توفيق المدني ص139 مكتبة النهضة .

[16] الجزائر في معركة التحرير سعد زغلول الجزائر 1956م ص28 .

[17] التعليم الاسلامي جمع في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، د. بصيرة زهوان رسالة ماجستير ص101

[18] عيون البصائر. الابراهيمي ص64 ط2 سنة 1970م.

[19] أجنحة المكر الثلاثة حبنكة الميداني ط1 1975 دار القلم دمشق ص59.

[20] أجنحة المكر الثلاثة ص 23

[21] المرجع السابق ص 25 . 43 . 45

[22] المرجع السابق ص 53 . 54

[23] انظر الأجنحة ص 179 - 184

[24] آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي احمد طالب دار الغرب 1997 السياق التاريخي محمد الهادي الحسني (5 17 . 19)

[25] الشيخ البشير الابراهيمي (جريدة البصائر) العدد الثالث سنة 1947نقلا . عن كتاب الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ص 68 – 69 د. تركي رابح.